الباب الرابع

الدور الأخير

القرن الرابع عشر

تمهيد

(أ) كان القرن الثالث عشر عصر بناء وتركيب يريد الجمع بين العقل والدين، ولا تعد الرشدية في ذلك العصر إلا حادثًا عارضًا، وإن كان له مغزاه ولكن الحال تتغير تمامًا في القرن الرابع عشر، فنشهد منه نقدًا للعقل ينتهي إلى التشكك فيه والاعتصام بالدين وحده، فينفصلان، يبدأ النقد على يد جون دَنْس سكوت، ويتفاقم على أيدي مفكرين فرنسيين وإنجليز، أشهرهم وليم أوف أوكام، ويتكاثر الرشديون بالرغم من الأحكام الصادرة ضد مذهبهم وينساقون إلى الإلحاد في الدين، بحيث يبدو القرن الرابع عشر سلبيًّا هدامًا للماضي.

(ب) على أن له وجهة إيجابية إنشائية بالإضافة إلى المستقبل، فإن تخليص الفلسفة من الدين أعادها إلى ما كانت عليه عند اليونان، وهكذا سيصطنعها المحدثون، وفي نفس الوقت الذي كان يعمل فيه نقاد الفلسفة، وفي نفس الأوساط، وبخاصة جامعة باريس ظهرت بوادر العلم الحديث، وأدت يقظة القوميات، وحركة تأسيس الممالك الحديثة وثورة الأباطرة الجرمان والملوك على البابوية، إلى إثارة مسائل في أصل الاجتماع، وأصل السلطة، ومدى كل من السلطتين الدينية والمدنية، تناقش فيها اللاهوتيون والفلاسفة

والفقهاء الكنسيون والمدنيون، وإلى جانب هذا اللون الجديد من الفلسفة والعلم الطبيعي والفقه، نشهد عودة «التصوف النظري» على طريقة سكوت أريجنا، أي عودة الأفلاطونية الجديدة في نواحيها الغامضة المريبة.